كزيتونة والدم الحار ...

بقلم شاكر مصطفى

بمناسبة مرور ٢٥ سنة على مصرع شاعر

« كما يموت الكلب » ... بهذه الجملة ، فيما اذكر، تنتهي قصة (المحاكمة) لكافكا . ان (ك) فيها يحاكم في مكان يجهله ، امام محكمة مظلمة لا يعلم ما هي ؟ عن جريمة لا يدريها ، ولكنها تعيي المحامين . ويحكم بالاعدام ، ثم تقطع رقبته بين حجرين ، يموت بكل تفاهة ولا منطقية وعبث ... كما يموت الكلب . ثمة حفرة من تراب مهجورة في الاندلس عرفت مثل هذه المأساة منذ خمس وعشرين سنة .

* * *

تلك الحفرة ، هي الان كومة من التراب اكلها العشب البري ، في غوطة للزيتون ، بل عند زيتونة متفردة ، عظيمة الفروع ، على ثماني كيلومترات من غرناطة . وتغط الكومة كسلا ، تحت لهيب الصيف أو ترتجف صقيعا حين تحتضنها ثلوج (سييرانيفادا) تماما كما كانت تغط وترتجف قبل وبعد تلك الليلة التاسعة عشرة من آب سنة ١٩٣٦ . في تلك الليلة فقط ، قبيل الفسق ، جرح الصمت الابدي الثقيل فيها ، لمدة نصف ساعة : سمع الوقع الاخرس لبعض السنابك والاقدام ، ثم ضربات قلقة غير سديدة من بعض المعاول والايدي ، ثم ولولت بعض الرصاصات ، ثم

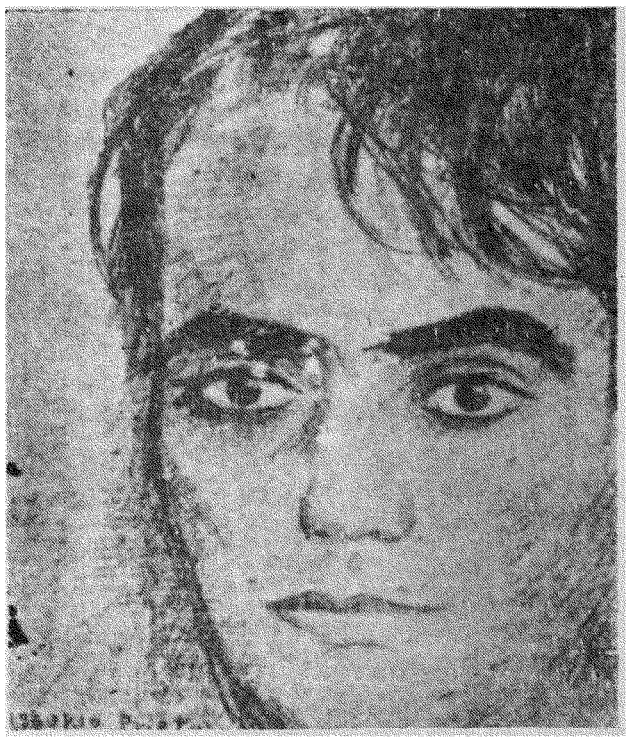

رصاصتان « للرجل السافل » ، ثم ابتعدت السنابك وبقيت الاقدام هناك الى الابد ، وعاد الصمت الابدي الثقيل!!

وفيما تتطلع العيون ، اليوم ، من كل فج ، الى كومة التراب الاندلسية ، بعضها يراها جرحا ناغرا ما يزال ينزف، وبعض ينبوعا من ظلام ومأساة ، وبعض — على الاقل — ذكرى حمقاء ، لا يميز الكومة عند الزيتونة ، حتى صليب خشبي عادي . جميع الناس في قرية (فسنار) المجاورة يتجاهلونها تماما . وغرناطة ، غرناطة الحمراء والقوس المقرنصة التي تحمل الف قبلة من ابي عبد الله الصغير غرناطة الكهوف الغجرية ، على الجبل المقدس (مونتيه ساكرادو) والقيثارة المجنونة ، غرناطة الجنات التي يغرق فيها الف ظل وتلتمع في آفاقها الثلجية مساكب الفضة، غرناطة الملامح الدمشقية والجفن الذابح ، والتنورة ، لا ارحب ولا ارقص ، غرناطة هذه ، لا تعرف كومة التراب المعشبة عند الزيتونة ولا تتحدث عن ليلة ١٩ آب التي فقدت فيها أحد امجادها . انها تكتم الجرح خلف ستار كثيف من اللامبالاة . الآلاف الذين يزورونها كل يوم تشير لهم غرناطة الى الحمراء وجنة العريف ، تركض بهم الى ما قبل ٦٠٠ — ٧٠٠ — ٨٠٠ سنة ، ولكنها تصر على ان تنسى ، امامهم الامس . لا امس لها . ومن لا يريد ان ينسى لها الامس ، ويصر على ان يتقراه ، يصر على ان يزور (دارة تاماريت) في حضن النارنج عند اسفل المدينة ، ذات السقف الوردي والواجهة البيضاء فانه لن يلقى احدا هناك سوى تمثال مبتسر لراس شاعر مات !... فاذا اصر الغريب على ان يزور كومة التراب عند زيتونة (فسنار) فان غرناطة تشيح عنه في ريبة ، تشيح بوجهها ، لا بقلبها ثم ترسل له جنديين من الحرس الوطني يسالانه : من انت؟ وماذا تريد ؟

طفل واحد فقط قبل ان يرافقني الى الزيتونة العظيمة بينما جعل اهل القرية ينظرون الينا في مزيج من الرعب والعطف وهم يفحون بصوت مكبوح : لا تذهب . كلهم لا يريدون ان يعرفوا ان ثمة بعض العظام ، التي يمكن ان تزار حول القرية . حتى سائق التاكسي العتيق الذي اوصلني سلم اوراقه للجنود الذين وقفوا في انتظارنا ، على طريق العودة !! ما تزال الجثة التي هناك حية اذن ، على ما يظهر . ما يزال القلب الذي رموه في الحفرة منذ خمس وعشرين سنة ، ينبض وينبض . ان شبح المأساة ما انفك ينتظر الانطلاق من التراب الاسود البليد . والهامة ، فوق ذلك التراب باقية تصيح : اسقوني !! اسقوني !

ومن ذا الذي يسقيها ؟ ودماء من ؟ القتيل كان القاتل في تلك الحرب الاهلية التي حرثت اسبانيا حرث الرومان لقرطاجة . من كانوا يدعون بالجمهوريين وبالقوميين، بالحمر

وبالسود ، باليسار وباليمين غطسوا اكفهم على السواء ، في اناء واحد من الدم . لم تكن مصارعة ثيران تلك ، يقفز الموت فيها بين قرني الثور وسيف المصارع ثم يصرح الجمهور (اوليه) : كان الجمهور هو الثور والمصارع ، هو القرن والسيف .. ولم يكن هناك على مدارج الساحة الاسبانية من متفرج واحد يصرخ !! مئات الالوف خسفت بهم الجدران ، او سحقهم البارود والهلع ، او تعلقت امعاؤهم بفرع شجرة ، او قضوا نزف الجراح ، مآس بالآلاف شربتها حقول الزيتون والبرتقال في الاندلس وهضبة الكاستيل . ومع ان زبد الفجر بعد الفجر قد ابتلعها ، احالها حكاية رهيبة في « لمن تقرع الاجراس » ، أو رؤى عنيفة في اشعار (نيرودا) الا ان قتيلا من قتلى ١٩ آب استيقظ هذه السنة ، كالزهر الشيطاني المر ، ليعيد كل تلك الحكاية وتلك الرؤى الى الاذهان . تقفز القتيل الى مسارح مدريد ، بعد نومة كهفية لربع قرن ، يحكي وحده ، كل عبث تلك السنوات السود . وحين شهد الناس مسرحيته (يرما) على الخشبة ، بعد ٢٦ سنة من الطرد ، لم يروا فيها قصة العاقر الحريب ، ولكن كابوس الماضي الذي يريدون أن ينسوا ، بكل ما في النسيان من عزاء ومن ألم ، مأساة (فيديريكو غارسيا لوركا) !!

***

« انا محظوظ جدا » ... كذلك كان يقول غارسيا لوركا الشاعر الاندلسي سنة ١٩٣٦ كان في الثامنة والثلاثين من العمر ولكن الاندلس لم تكن تتسع لامدائه . وكانت اسبانيا وامريكا ما بين نيويورك وارض النار ، تتحدث عنه وتدعوه . اعجب الناس منه مذاق الشعر الفجري ، قصيد الارض الاندلسية ، ارج الليمون الذي يفعم حروفه . كانت له حساسية طفل ، وشفتا قيثار عنيف . كان يغني للاطفال ، للفجر ، للناس العاديين ، لمصارعي الثيران ، للغد الشعري . ويغني بخصب وعفوية ، وفي كثير من وحي الحرف والروح ، وكان قد عم على الناس ، منذ زمن ، ان يسمعوا في الحرف الاسباني ، هذه الجاذبية الجمالية العجيبة التي براها لوركا . وتلك القيم البسيطة العميقة معا التي تفعم التراب الاندلسي ، ذا الحبق والسنديان والزيتون الليلكي ، والتي كانت تنبض في كلماته ، سرعان ما وضعته بجانب (نيرودا) ، وقاب قوسين من (روبن داريو) .

وفي تموز من تلك السنة كان لوركا يهيء رحلة محاضرات وشعر الى الولايات المتحدة والمكسيك ، وكولومبيا ، والارجنتين . وكان بين يديه مشروع مسرحية (تحطيم سدوم) يكمل بها ثالوث مسرحيتيه : (يرما : العاقر) و (بيت برناردا آلبا) . وقد انهى ، في تلك الفترة ايضا ، سلسلة من القصائد على النسق العربي بعنوان (ديوان تاماريت) ... كانت الدنيا مدى شموس لاتنتهي عند الشاعر ، النجم والزنبقة وضحكة الجنية كانت رقصا على يديه !!

وفجأة اسود الجو في اسبانيا السواد المرعب واطلت الفتنة ، كأصابع الشيطان ، تعتصر الشرايين . ولم يكن الشاعر ينتمي الى حزب او جماعة ، ولكنه كان معروفا بميوله نحو اليسار . كان يجهر بضرورة العدل الاجتماعي ، ويناكف رجال الدين ولا يهمه ان تزحف الشكوك على حياته الخاصة .

وهذا النوع من الناس لم تعد تفهمه اسبانيا الان ولكنه كان نموذج فناني الطليعة قبل سنة ١٩٣٦ ، ولقد اجترأ غارسيا لوركا سنة ١٩٢٥ ، ودكتاتورية (بريمو دي ريفيرا) في الاوج ان يلقي الى الجمهور مسرحيته (ماريانا بينييدا) (١) نشيدا يائسا للحرية . ثم مثلت له المسارح (اعراس الدم) التي مجد فيها الحياة والنضال للحرية في قلق سنة ١٩٣٣ ، ولم يخف ، في تلك الفترة العاصفة من سنة ٩٣٦ رأيه . صرح للصحف بأنه اسباني مائة بالمائة ولهذا لا يفهم بل يبغض ويحتقر اصحاب اليمين !! وكان هذا كافيا لان يأتيه صديقه الشاعر اليميني (لويس روزالس) ليرجوه ان يسافر الى بلدهما المشترك ، غرناطة « هنا في مدريد ليس في الامكان حمايتك ... ولا استطيع ان اصنع لك شيئا » .

كانت اسبانيا كلها تهتز واللهب يزحف الى الحديد وزهرة البرتقال على السواء . كان رقم الاغتيالات يرتفع ، والكثيرون يختفون في غموض ، والسلاح يغزو الشارع في تحد ساحق ، والغطيط الوحشي للحرب الاهلية يركض في الدروب . ولم يجد لوركا سوى ان يطوي مشاريعه وراء البحر ، اشلاء في محفظته ، ويركب القطار الى غرناطة . وحين لوح للاصدقاء بيده قال : « لتكن ارادة الله » .

بعد يوم واحد فقط من وصوله الى بيته (دارة تاماريت) التهب كل شيء . اندفعت الفاجعة تمزق اسبانيا صدرا وعينا وضلعا ، تمزيق النسر لبروميثوس عند صخرة القفقاس ! واستطير لوركا . كانت آخر قصائده في (ديوان تاماريت) تقول :

بين اغصان الغار
تنطلق حمامتان قاتمتان
كانت الاولى الشمس والثانية القمر
قلت لهما : « أيا جارتا !!
اني تراه تابوتي ؟ ... »

ولكن ما كان يقدر ان هذا التابوت قريب جدا منه ، وانه لن يكون اكثر من تابوت من التراب !! ما خطر ذلك في باله : « انا محظوظ » . ولكن الذعر كان قد طلا جدران المدينة بلون الرماد ، اخرس القيثارة الاندلسية ، واوقف التنورة المنداحة عن ان تنثر الزهر ، واحال العيون الى ثقوب في صخور . وما عتم الذعر ان طرق باب الشاعر . كان ثمة من يرود الطريق بالسلاح امام تاماريت ، وثمة من يناديه : بالملحد والسافل ، من وراء الحجرات ، وثمة في الازقة « الكتيبة السوداء » التي تقبض وتحاكم وتعدم في وقت معا !!

خلال شجيرات (تاماريت) ،
جاءت كلاب من الرصاص
تنتظر ان تتساقط الاغصان ،
تنتظر ان تنهار من نفسها

. . . . .

ولكن الاغصان فرحة
والاغصان مثلنا
لم تكن تفكر بالمطر
كأنما ستكون شجرا عن قريب !!

. . . . .

واديان كانا ينتظران الخريف
قاعدين والماء عند الركب منهما
فيما الظلام ، بخطوة كخطوة الفيل
يرمي بالاغصان والجذوع

---

١) مسرحية (ماريانا بينييدا) سوف تطبعها دار الاداب بالعربية عن قريب .

بين شجيرات (تاماريت)
تمه اطفال بوجوه محجبة
ينتظرون ان تساقط الاغصان
ينتظرون ان تنهار من نفسها !!
(الاغصان ــ ديوان تاماريت)

ولكن هذا التفاؤل الشعري لم يكن ليغني عن الهرب. واختار لوركا اللجوء الى دار صديقه الشاعر اليميني(لويس روزالس) نفسه ، حيث لقي الامان فترة لم يكن لها ان تطول . فان قائد الكتيبة السوداء (الذي ما يزال يعيش الى اليوم في مدريد) سمع وهو في المقهى ، الشائعة القائلة . ان الحمر ، في مدريد ، قد ذبحوا الكاتب المسرحي الوطني (خاسينتو بينافينته) . وبصق القائد غضبا « لا بأس . ان لدينا هنا غارسيا لوركا » !! وكانت الشائعة كاذبة لكن حكم الاعدام كان قد صدر بكلمة !! ولم يكن صعبا التقاط لوركا في وكره . وحين قبض عليه في دار صديقه ، كان ملتصقا الى الحائط ، من الرعب والبهر . ولم تنفع الشفاعات كلها في انقاذه من المصير المجهول . تدخل بعض القسس « للملحد » وبعض المتنفذين « ليساري » وبعض الاصدقاء « للشاعر » ولكن ذلك لم يخلف لدى قائد الكتيبة السوداء سوى بعض الضيق : « أكل هذا من اجل ملحد سافل ؟ سارميه بالرصاص ! » .

وفي ليلة ١٩ آب ، على عتمة كثيفة كالبترول ، كانت زمرة صغيرة من الاقدام تسير على الطريق المتربة ، الصاعدة بجانب ممر لبعض السيل ، في ظاهر غرناطة . الخطوات تتجه الى قرية فسنار ، واما الايدي فمغلولة الى الظهور. ومن حول زمرة الاقدام كانت بعض الخيل والبنادق والعيون الحامدة البريق . ودون صمت ، كالدم اللزج ، يلف حناجر الجميع . حتى الاصداء كانت تهوي في قاع اصم اخرس.

واحد في الزمرة فقط ، كان جبينه يضج بالوان اخرى مهووسة . كانت القوافي وامشاج القصائد تعثر بين صدغيه وشفتيه ، تعثر اقدامه بالحجارة ، دون نظام . لم تكن قوافي جديدة بل كان القديم من كلماته يهجم ، كخفافيش الظلمة ، على عينيه . ما كان يعرف للموت هذه الخبطة في الحلق . والموت الذي كان ينتظر كان موتا بشرفة وطفل وحصاد قمح ، موتا ليس غير لعبة اخرى من لعب الحياة ، ينتهي بدفن مع القيثارة بين البرتقال والنعناع . . ولكن هل هذا الذي هو قادم عليه ، في سدفة الليل ، هو الموت ؟ كان يحس من قبل ان معنى الحياة يندمج في معنى الموت . لقد قال مرة ذلك . ان موتا يتم بكل جد ، وجها لوجه ، ان هو بكل بساطة الا « وداع » :

اذا جاءني الموت
فأتركوا لي الشرفة مفتوحة
الطفل يأكل البرتقال
الطفل يأكل البرتقال
الحصاد يحصد القمح
من شرفتي احس به
اذا جاءني الموت
فاتركوا لي الشرفة مفتوحة !!

ولكن هذه الطريق الصاعدة ، وهذه القيود ، وهذه العتمة ، وهذه البنادق المتربصة فوق سنابك الخيل، ما كان يتصورها جنازة وموكبا . انها تعطي الموت معنى اخر من المرارة والعبث والحقارة . انه الان ليتحسس الموت في جوانبه . انه ليحمل موته في جسده نفسه . التصقت دورة الحياة والموت ، من نهايتها ، في حلقة واحدة مفرغة. وليس هذا الاحساس بغريب عنه ، لقد عرفه لحظه كان مصارع الثيران المعروف (٢) :

(اغناسيو) يصعد الدرجات
بكل موته في اضلاعه
كان يبحث عن الفجر
ولم يكن الفجر هناك
يبحث عن ظله الجانبي الاكيد
والحلم يضلله
كان يبحث عن جسده الرائع
فوجد دمه المفتوح !!

وعند زيتونة (فسنار) توقف الركب ، وصدر الامر بأن تحفر هناك الحفر ، وسقطت الاقدام بسرعة ، مع الرصاص في الحفر ، الا واحدا ، ادخره القائد لنفسه . « دعوا هذا جانبا . . . سأتكفل انا بهذا السافل » وامره ان يركض . ولم يدرك خطوة او بعض خطوة ، بعد ان ولى ظهره ، حتى نفذت رصاصتان من نقرته (٣) . . ثم خيم صمت جليدي !!

. . . كان هذا « السافل » هو فيدريكو غارسيا لوركا !!

* * *

يد واحدة هي التي صاغت (يرما) و(اعراس الدم) وهي التي فتحت القبر ، وهو هو الشريان نفسه كان يسقي قوافي (يانتو) و (المتزوجة الخائنة) و (الاغاني الفجرية) فأضحى يطعم زيتونة مهجورة . ومحكمة (كافكا) نفسها، والموت في عبث وتفاهة « كما يموت الكلب » ، وانغلاق الحلقة المفرغة . . . العزاء الوحيد هو ان الزيتونة ما تزال جذورها ، حتى الان تحس حرارة ذلك الدم .

شاكر مصطفى

---

٢) هو المصارع (اغناسيو سانشس مخياس) الذي صرع سنة ١٩٣٥ ورثاه لوركا بقصيدته المشهورة (يانتو) .

٣) نشرت منذ شهرين فقط اول التفصيلات عن مصرع لوركا ، بعد ٢٥ سنة من ذلك المصرع .

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي
قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش